مجلة الشهاب • المجلد: 09، العدد: 02 (2023م) • ص ص 527 - 534
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/391

مكانة اللغة العربية في بلدان جنوب الصحراء من انتشار الإسلام وحتى الغزو الأوروبي ـ مقاربة تاريخية ـ

The status of the Arabic language in sub-Saharan countries from the spread of Islam to the European invasion -a comparative study-

سعيد نواصر *
جامعة أدرار (الجزائر)
nouacersaid@univ-adrar.edu.dz

أحمد جعفري
جامعة غرداية (الجزائر)
Jaafri.ahmed@univ-ghardaia.dz

تاريخ الاستلام: 2023/04/02 | تاريخ الاستلام: 2023/05/03 | تاريخ النشر: 2023/07/15

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص: تعد اللغة رافدا أساسيا من روافد البحث واحد أسسه الركيزة التي لا مناص منها من أجل توارث العلوم وانتشارها، ولا شك أن اللغة العربية تعد أحد مظاهر الإشراق الحضاري التي عرفته حواضر إفريقيا جنوب الصحراء، كيف لا واللغة العربية لغة القرآن ولسان الإسلام في تلك البلاد وأحد العوامل الأساسية في انتشاره، وبفضل ذلك عرف العالم ممالك سنغاي ومالي وحواضر تمبكتو وجني وغيرها، فكانت لغة التدوين والكتابة والمراسلات وغيرها، غير أنّ ذلك البزوغ وإنِ استمر طويلاً عرف تراجعا مع وصول طلائع الاستعمار الفرنسي إلى تلك البلاد، ولم يتوقف الأخير عند هذا الحد بل عمد إلى طمس جميع ما يمت إلى تلك اللغة بصلة، فأُحرقتْ مخطوطات تمبكتو ومكتبات جني وعمد الاستعمار إلى إحياء اللهجات المحلية القديمة التي ولّى زمانها على حساب اللغة العربية وبالمقابل أجبر الأفارقة على تعلم لغته وكان في ذلك هدفه الأسمى قطع كل صلة لتلك المنطقة مع امتدادها الإسلامي والعربي. ذلك ما سنحاول معالجته في هذا المقال من خلال مقاربة تبرز الوجه المشرق للغة العربية في بلدان جنوب الصحراء وكيف أصبحت مع دخول الاستعمار الأوروبي

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية؛ جنوب الصحراء؛ الاستعمار؛ التجارة؛ التعليم.

Abstract : The language is considered as an essential tributary of the tributaries of the research and one of its foundations as the indispensable pillar for the inheritance and spread of sciences. There is no doubt that Arabic is one of the manifestations of civilizational radiance that the metropolises of sub-Saharan Africa knew, how not when Arabic is the language of the Qur'an and the tongue of Islam in those countries One of the main factors in its spread, and thanks to that, the world knew the kingdoms of Sangay and Mali and the cities of Timbuktu, Jenny, and others, so it was the language of blogging, writing, correspondence, etc. He deliberately obliterated everything related to that language, so the manuscripts of Timbuktu and the libraries of Genie were burned. Colonialism revived the old local dialects

* المؤلف المراسل.

whose time had passed at the expense of the Arabic language. . This is what we will try to address in this article through an approach that highlights the bright face of Arabic in countries south of the Sahara and how it became with the entry of European colonialism.
Keywords Arabic language; Sub-Saharan; Colonialism; Commerce; Education.

1. مقدمة

كانت ولا تزال اللغة هي أداة التواصل بين الأمم والشعوب، وبفضل الإسلام وانتشاره احتلت اللغة العربية مكانة هامة لدى الأفارقة من سكان السودان الغربي والأوسط حيث ممالك مالي وسنغاي والبرنو وغيرها، وامتدت تلك المكانة والأهمية لتشمل ذلك المجال الجغرافي حتى بداية القرون الحديثة، ونلمس أثر ذلك في مختلف مناحي الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية، فهي لغة الدين ولسان القرآن وبها يدرس الطلبة في الكتاتيب والمدارس ومن خلالها يتعامل التجار السودانيون مع نظرائهم من التجار القادمين من بلاد المغرب وشمال افريقية، وبحروفها أيضا كانت تؤلف الكتب والدواوين وهي لغة الإدارة والمراسلات الخارجية، وبغض النظر عن سيادتها بين العامة من عدمها فان اللغة العربية كانت تبرز مكانة المثقف والعالم والأديب بمعايير ذلك الزمن.

غير أن هذه المكانة التي حظيت بها اللغة العربية سرعان ما عرفت بعض التراجع في القرون التي تلت القرن السادس عشر الميلادي العاشر الهجري بفعل عوامل عديدة في فترة غابت فيها حركة التدوين في بلاد السوادين، لتستمر تلك المعاناة حتى وصول طلائع الاستعمار الأوروبي والذي عرفت معه اللغة العربية تراجعا حاداً وهجوما ممنهجاً حدّ من انتشارها وحجّم من قدرها ومكانتها، وظل ذلك الوضع قائما الى ما بعد استقلال تلك البلاد، وان عرفت جانباً من العناية في الفترة المعاصرة.

والإشكالية التي سنعالجها من خلال هذا البحث هو وضع مقاربة تاريخية حول مكانة اللغة العربية في بلدان جنوب الصحراء من انتشار الإسلام إلى دخول الاستعمار الأوروبي. تندرج تحتها تساؤلات فرعية مفادها. كيف انتشرت اللغة العربية في إفريقيا جنوب الصحراء؟، وما العوامل التي ساعدت على ذلك؟ أين يظهر مجال تأثيرها والتمكين لها؟ وهل كان للاستعمار دور في أفولها وضمورها؟ وكيف يمكننا إعادة بعثها؟

ذلك ما سنحاول الإجابة عنه من خلال هذا البحث بانتهاج خطة عمادها

-عوامل انتشار اللغة العربية في إفريقيا جنوب الصحراء

-مظاهر التمكين للغة العربية

-أثر اللغة العربية في اللغات الإفريقية

-اللغة العربية والغزو الأوروبي.

وخاتمة للنتائج المتوصل اليها وتوصيات تضمنت حلولا ممكنة لإمكانية إعادة بعث اللغة العربية

في بلدان جنوب الصحراء

2. عوامل انتشار اللغة العربية في إفريقيا جنوب الصحراء

وصل الإسلام إلى جنوب الصحراء في حدود القرن الثاني للهجرة حسب رواية البكري في فترة الفتوحات التي قادها عقبة بن نافع الفهري حيث يرجح أنه أرسل حامية عسكرية وصلت إلى حدود مملكة غانا، وان كان مجال البحث لا يسمح لنا بالوقوف عند جميع العوامل التي ساهمت في انتشار اللغة، فلا شك أن للفتوحات والدعاة والتجار والهجرات القبلية نسب متفاوتة في ذلك التأثير.

1.2. الإسلام واللغة العربية:

تُعدُّ اللغة العربية الرافد الأساسي للدين الإسلامي في بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، فهي لغة القرآن ولسان تأدية الصلوات والتي لا تصح إلّا بها، لذلك حرص السودانيون على تعلم اللغة العربية وتعليمها لأبنائهم في المساجد والمدارس والكتاتيب بل حرصوا على إرسال أبنائهم إلى مختلف المعاهد الكبرى في بلاد المغرب للتزود أكثر من العلوم الدينية واللغوية. وتعدت أهمية هذه اللغة إلى الحياة اليومية للإفريقي باستخدامها في التجارة خاصة إذا علمنا أن أسواق تمبكتو ضمّت العديد من التجار من بلاد المغرب والمشرق من توات وغدامس والقاهرة وغيرها. وتجاوزت اللغة العربية ذلك لتكون جزء من شخصية الإفريقي وهويته (الودغيري، 2011).

2.2. الهجرات العربية:

تشير الكثير من الدراسات إلى أن القبائل والهجرات العربية نفذت إلى جنوب الصحراء قبل وصول الإسلام، والتمس المؤرخون ذلك من خلال الأسماء والألفاظ والكلمات التي كان يستعملها سكان تلك المناطق، خاصة شعوب إثيوبيا والهاوسا وبلاد البرنو، حيث كان الاتصال العربي مبكراً واستقرت بعض الأسر العربية هناك خاصة في إقليم دارفور وقبائل أولاد سليمان شمال تشاد الحالية والمسيرات والزريقات وعرب الشوا وغيرها من القبائل العربية (التونسي، 1965).

وإذا ما حاولنا العودة إلى منافذ تلك الهجرات فنجد أن هناك أكثر من منفذ، من الشرق البحر الأحمر واتصاله بشرق إفريقيا، جنوب مصر، ومن الغرب جنوب بلاد المغرب الإسلامي، وان كانت الفترة السابقة لانتشار الإسلام لا يمكن الجزم بوجود تواصل مباشر لانعدام توفر المصادر المادية أو المكتوبة، إلّا أنّه بدخول الإسلام لهذه المناطق أعقبته هجرات عربية في الشرق، وهجرات لقبائل عربية ومغاربية معرّبة في الغرب، استقرت على تخوم تلك البلاد ونفذ البعض منها إلى الداخل وتعرض للذوبان في القبائل الإفريقية (حامد، 1987).

2.3. التجار:

كان التاجر العربي القادم من بلاد المغرب او المشرق يعتز بلغته ودينه فهو داعية قبل أن يكون تاجراً، وبرغم صعوبة التواصل في بدايات التبادل التجاري مع بلدان جنوب الصحراء واعتماد تجارة المقايضة والتجارة الصامتة كأداة للتواصل، فنجد أنّ أمانة العربي المسلم وصدقه دفع تجار بلاد السودان إلى تعلم هذا الدين ومنها اللغة التي جاء بها، وقد أثمر ذلك التواصل التجاري إقامة أحياء كاملة خاصة بالجاليات العربية في بلاد السودان وبالأخص عواصم تمبكتو وجاو فكما يذكر حسن الوزان الذي زار تمبكتو في بداية القرن 16م، انه كان هنالك حي للتواتيين وآخر للغدامسيين وثالث للمراكشيين وهكذا، ولا شك أن استيطان أولئك التجار واختلاطهم بالسودانيين زواجا وتواصلاً ساهم أكثر في نشر اللغة العربية (زبادية، 2005).

3. مظاهر التمكين للغة العربية في بلدان جنوب الصحراء

1.3. التعليم والإدارة:

يعود الفضل إلى الإسلام أولاً ومعه اللغة العربية في انفتاح غرب إفريقيا على الحضارة الإنسانية، ونحن بهذا الوصف لا ننتقص من الحضور الإفريقي في سيرورة الحضارة، إلّا أنّ قبائل وشعوب إفريقيا جنوب الصحراء عُرِفت لدى العالم بعد وصول الرحالة العرب اليها وتدوينهم عنها، وسريعا ما تبنى أولئك السودانيون الإسلام والعربية ودافعوا عنها وعملوا على نشرها في مختلف القبائل الوثنية الأخرى، وعقب تثبيت الإسلام في تلك البلاد أصبحت اللغة العربية لغة التعليم في تمبكتو وجني وغيرها من العواصم العلمية في ممالك مالي وسنغاي.

ويتحدث أحد علماء نيجيريا عن اللغة العربية في عهد الفوديين فيقول "وقد كانت اللغة الوحيدة التي دون بها جميع تقارير الإمبراطورية في القرن التاسع عشر، كما أن جميع الأحكام في المحاكم الشرعية حتى بعد سطو الاستعمار البريطاني كانت تسجل بها في كثير من الإمارات الإسلامية في وقت قريب، ثم بدلت باللغة القومية وهي لغة الحوسا. ولكنه بالرغم من ذلك، فقد بقيت المكاتبات بين الأمراء باللغة العربية إلى يومنا هذا" (علي، 1965)، ويشير يعقوب لامين دمبيا إلى أنّ سلاطين مالي كانوا يتكلمونها ومنهم السلطان موسى الأول، وقد تكلم العربية بطلاقة عند مقابلته السلطان قلاوون 1334م، وهو في طريقه إلى مكة (لامين دمبيا، 2007).

2.3. حركة التدوين:

بفضل التعليم العربي أضحى السودانيون مُعرّبو اللسان وأثمر ذلك قيام الأفارقة بالتأليف والتدوين بالخط العربي وفي مختلف العلوم النقلية والعقلية، ومن كتبهم في الحوليات والتاريخ وهي باكورة ما دوّنوه نجد تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدي (السعدي، 1964)، وتاريخ الفتاش لمحمود

كعت (كعت، 1965)، وتذكرة النسيان لابن المبارك، وفي الفقه والتراجم ألف احمد بابا التمبكتي الكثير منها تطريز الديباج، وكفاية المحتاج ، ويذكر عن حالة الأسر التي وقع فيها واقتيد فيها إلى المغرب على انه فقد آلاف الكتب والمخطوطات من مكتبته العامرة وكانت جل تلك الكتب أما منسوخة عن الأصل أو تم تأليفها بأقلام افريقية وفي الحالتين يبرز الاهتمام والمكانة التي تحظى بها اللغة العربية.

وفي مجال الأدب نجد أنّ الأدب الإفريقي المتداول أو المنشود إنما هو وجه آخر للأدب العربي حتى العصر الحديث سواء من حيث المواضيع التي تطرح أو من حيث الصياغة والأسلوب وبناء القصيدة الشعرية ولم يكن من الممكن أن يشاهد هذا النتاج الأدبي الغزير في إفريقيا باللغة العربية لولا تأثير اللغة العربية في المجتمعات الإفريقية (دياب، 2001).

3.3 الحياة اليومية:

نظرا للمكانة التي حظيت بها اللغة العربية ثقافيا وعلميا بين أهالي بلاد السودان انتقلت تلك المكانة إلى الاستخدام اليومي للغة العربية في الأسواق والتعامل (حامد، 1987)، وتسمية الأبناء والشوارع والمساجد وغيرها ويذكر إبراهيم طرخان متحدثا عن مملكة غانا " كانت اللغة العربية هي لغة العبادة والثقافة الوحيدة في البلاد وهذا بجانب كونها لغة التجارة والمكاتبات" (طرخان، 1970)، وينقل عن الرحالة الإنجليزي فرنسيس مور الذي زار موطن الفولانيين على نهر الجمبيا سنة 1731م يقول عنهم: "إنهم يشبهون العرب، ومعظمهم يتكلمون العربية لأنهم يتعلمونها في مدارسهم" ويقول توماس أرنولد: " إن العربية أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة الإفريقية" (النحوي، 1993).

وعلى الرغم من أنّ اللغات واللهجات الإفريقية كانت كثيرة وعديدة وقدرها البعض بين 600 و1000، فان التواصل باللغة العربية كان الأكثر انتشارا دون سواه (الودغيري، 2011).

4. أثر اللغة العربية في بعض اللغات الافريقية:

يمثل انتشار اللغة العربية واستخدامها من قبل القبائل الإفريقية دلالة واضحة على تأثر اللهجات واللغات المحلية بالحرف العربي فعندما زار كادموستو منطقة الكازاماس جنوب السنغال سنة 1456م وجد أن لغة الماندنكا هي لغة الإدارة والتجارة إلا أنها تكتب بالحرف العربي، وانسحب هذا التأثير على باقي اللهجات المنبثقة عن لغة الماندنكا خاصة لهجة المالينكي والبامبارا (دياب، 2001)، وكانت اللغة الفولانية تكتب وتقرا من فجر تاريخها بخط عربي وحروف عربية ومما يدل على ذلك أن اغلب ما كتبه الفوديون مكتوب بالخط العربي والثابت ان هناك تشابهات كبيرة بين اللغة الفولانية واللغة العربية خاصة في جانب الاشتقاق ويؤكد ذلك ما ورد في رسالة عبد الله بن فودي "...على أن لغتنا هي اللغة الفلاتية وهي كثيرة التوافق باللغة العربية" (دياب، 2001).

وثبت أن لغة الهوسا أوّلُ ما كتبت بالحرف العربي قبل كتابتها بالحروف اللاتينية، ويطلق على

الحرف العربي الذي تكتب به اسم "اجمي"، وقد انتشرت كتابة الهوسا بالحرف العربي في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر عندما فتح الشيخ عثمان دان فوديو البلاد الهوساوية، ويحتفظ كثير من علماء الهوسا بالمخطوطات الشعرية القديمة بحرفها العربي واستعملت لغة الهاوسا بالحرف العربي في كتابة دواوين الإدارة قبل حلول الاستعمار، وعن اللغة السواحلية في شرق القارة فأكثر من 60 بالمائة من ألفاظها عربية الأصل (دياب، 2001).

5. اللغة العربية والغزو الأوروبي لجنوب الصحراء:

شهدت بلدان جنوب الصحراء موجة استعمارية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكانت تلك الدول الاستعمارية قد أرسلت قبل ذلك مستكشفيها ومخبريها للتعرف على تلك المناطق المجهولة، وبغض النظر عن التقارير التي كتبت والمجلدات الجغرافية التي أُلِّفت ومدى مصداقيتها فان القليل منها كان منصفاً في وصف الحالة الثقافية التي أكدوا فيها سيادة اللغة العربية وانتشارها حتى أن العديد منهم لم يتمكن من الوصول إلى تلك المجتمعات جغرافيا أو التعرف إليها اجتماعيا إلا بعد الاطلاع على ما خلفه العرب من مدونات عن جنوب الصحراء، وقد حاول كثير من المؤرخين والمستشرقين الأوربيين عبثاً أن يجعلوا من إفريقيا عامة وجنوب الصحراء خاصة أنها من غير تاريخ ولا حضارة إلاّ أنّ جميع الشواهد أثبتت غير ذلك خاصة ما تعلق منه بانتشار الإسلام والحضارة العربية.

وبدخول الاستعمار واجه هذا الأخير مقاومة شديدة قادها زعماء الدين والطرق الصوفية دفاعا عن بيضة الإسلام ومجابهة لمخططات المسخ والمسح التي حاولها ضد كل ما يمت بصلة إلى هذا الدين وقد لاقت اللغة العربية نصيباً غير يسير من ذلك الطمس فقد أحرقت مخطوطات تمبكتو واغلبها بالحرف العربي، وسرق الكثير مما بقي منها وتم تهريبه إلى فرنسا خاصة ولا أدل على ذلك من المخطوطات التي لا تزال محفوظة هناك وترجم البعض منها إلى اللغات الأجنبية وفقد النص العربي الأصلي.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من محاربة اللغة العربية بل عمل المستعمرون على تشجيع اللغات واللهجات المحلية ومحاولة تسويد صورة وماضي العرب في تلك البلاد وبالمقابل ربط اللغة الفرنسية بالحضارة والعلم والتقدم فقامت بفرض إجبارية تعليم اللغة الفرنسية، ففي سنة 1856م كتب حاكم السنغال آنذاك فيدهرب إلى وزير المستعمرات الفرنسية تقريرا جاء فيه " إن الرغبة التي يبديها الزنوج في تعلم العربية لهي مصيبة بالنسبة إلينا، ويجب علينا أن نحذر، بل يجب علينا أن لا ننمي هذه الرغبة باي حال من الأحوال. فاللغة الفرنسية هي التي يجب علينا أن نعلمهم إياها، وهذا لمصلحتنا الخاصة" (الدالي و هلال، 1996).

ومن الإجراءات التي اتخذتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية إلزامية تعلم اللغة الفرنسية للحصول على الجنسية الفرنسية وعمدت إلى إرسال بعثات من المتعلمين إلى الجامعات الفرنسية، وبفضل ذلك

مكنت لتشكيل نخبة محلية مرجعيتها المستعمر لتخدمه بعد الاستقلال وضمان استمرار التبعية الثقافية والعلمية ومن أمثلة ذلك الكثير ومنهم من اعتلى الوزارة والرياسة مثل سيدار سانغور في السنغال.

وبعد الاستقلال وجدت هذه الدول نفسها مكبلة في إطار اتفاقيات ثقافية واقتصادية كان من أبرزها منظمة الدول الناطقة باللغة الفرنسية "الفرنكوفونية" والهدف من ورائها استمرارية التبعية الثقافية ولا شك أن لذلك أثره على اللغة العربية واللغات المحلية خاصة وان المستعمر غرس في ذهن شعوب تلك البلدان أن لغته هي لغة الثقافة والحضارة، وأصبحت هذه الأخيرة اللغة الرسمية لكثير من دول جنوب الصحراء بعد استقلالها.

6. خاتمة

في خاتمة هذا البحث نخلص إلى:

- ساهم انتشار الإسلام واعتناقه من قبل سكان جنوب الصحراء في الإقدام على تعلم اللغة العربية والسعي للحديث بها باعتبارها لغة الحضارة والعلم

- يظهر أثر اللغة العربية في عديد المجالات العلمية والثقافية والاجتماعية في بلدان جنوب الصحراء

- نلمس أثر الحرف العربي في اللغات واللهجات المحلية الإفريقية مثل لغات الهاوسا والسواحلية وتبنت الكثير منها الخط العربي أساسا في الكتابة.

- لا يختلف اثنان على أن الاستعمار عمل على طمس كل أشكال الهوية والانتماء ومنها اللغة العربية وكانت طرقه في ذلك كثيرة، من محاربة التعليم بها، وإتلاف مخطوطاتها، وإحلال اللغة الفرنسية بديلا عنها.

وعلى الرغم من صعوبة الوضع الحالي فانه في إمكان بلدان جنوب الصحراء الإفريقية تجاوز تلك المرحلة وإعادة بعث اللغة العربية وذلك من خلال:

- إحياء التراث والذاكرة اللغوية المشتركة بين المجالين المغاربي العربي وجنوب الصحراء

- تجديد التبادل العلمي والثقافي الديني خاصة وتوسيعه لمجالات أوسع، يكون فيه اعتماد اللغة العربية أساسا لذلك التواصل

- إقامة وتشييد مراكز علمية تُعنى باللغة العربية وآدابها في بلدان جنوب الصحراء بدعم مادي وعلمي عربي ومغاربي.

7. قائمة المراجع

- التونسي، م .(1965) .*تشحيذ الاذهان بسيرة العرب وبلاد السودان* .القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر.
- السعدي، ع .(1964) .*تاريخ السودان* .باريس: منشورات هوداس.
- النحوي، خ .(1993) .*إفريقيا المسلمة*، .بيروت: دار الغرب الاسلامي.
- الودغيري، ع .(2011) .*اللغة العربية والثقافة الاسلامية بالغرب الافريقي وملامح من التاثير المغربي* .(Vol. 01)الدار البيضاء: كلية الاداب والعلوم الانسانية الرباط.
- حامد، ر .(1987) .*العرب في افريقيا الجذور التاريخية والواقع المعاصر* .القاهرة: دار الثقافة العربية.
- دياب، ا .(2001) .*علاقة اللغة العربية باللغات الافريقية* .المؤتمر الدولي اللغة والثقافة في افريقيا القاهرة: معهد البحوث والدراسات الافريقية.
- زبادية، ع .(2005) .*الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في افريقيا الغربية جنوب الصحراء* . الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- طرخان، ا .(1970) .*امبراطورية غانة الاسلامية* .القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر.
- علي، ا. م .(1965) .*علي ابوبكر محمد، الثقافة العربية في نيجيريا من أوائل القرن التاسع عشر الى استقلال البلاد* .نيجيريا: دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع.
- كعت، م .(1965) .*تاريخ الفتاش* .باريس: منشورات هوداس.
- لامين دمبيا، ي .(2007) .*أثر اللغة العربية في لغة الماندينكو دراسة لغوية مقارنة* .بنغازي: منشورات جامعة 07 اكتوبر.